

المقدمة:

مرحباً بكم جميعاً في "عيون على غزة" — تجمّعنا اليومي الذي يمزج بين الاحتجاج والتعلم. قد يصعب علينا استيعابه، لكن الجوع والمجاعة في غزة — التي سمعنا عنها في محادثات سابقة ضمن هذه السلسلة — تتفاقم وتصل إلى مستويات أكثر كارثية كما حذرنا المتحدثون. الأصوات والصور التي تصلنا اليوم من غزة، خاصة من النساء، لا تطاق. ضيفتنا اليوم، الدكتورة عنات مطر، الفيلسوفة والناشطة من جامعة تل أبيب، ستضيف بعداً تاريخياً لقصة نساء غزة وستقدم مشروعاً خاصاً. شكراً لك، عنات، على انضمامك إلينا. أود أن أذكر الجميع بأن عنات ستتحدث حوالي ثماني دقائق، ثم سنترك وقتاً قصيراً للنقاش. من يرغب في طرح سؤال، يُرجى كتابته في الدردشة، وسأقرأه عليها بصوت عالٍ. شكراً مجدداً، عنات.

الحديث:

بكل سرور. بصراحة، موضوعي في الحقيقة لطيف مقارنة بالرعب الذي يحيط بنا. سأحدث عن شيء لا يمكن تلخيصه في عنوان واحد فقط. لكنني لن أتحدث عن نساء غزة بشكل عام — بل عن سلسلة كتب، لأقدمها لكم وأشعل اهتمامكم بها. السلسلة تُسمى "أصوات نساء من غزة" (<https://ualbertapress.ca/search/?series=womens-voices-from-gaza-series>) وسأتحدث لاحقاً عن المحررين وما إلى ذلك. لا أريد أن أضيع وقتاً في ذلك الآن، لكن قد نعود للموضوع لاحقاً.

السلسلة منشورة عن طريق دار نشر جامعة ألبرتا، وصدرت حتى الآن ثلاث كتب — سأقدمها بعد قليل — والرابع مقرر صدوره العام المقبل. كل مجلد يقدم فعلاً صوت امرأة من غزة، رحمها الله. جميعهن قد توفين، بعضهن مؤخراً. أجريت المقابلات قبل 15 أو 20 عاماً، معظمها بواسطة عادة عجيب، صديقة لي — كما ذكرت، سنتحدث عنها — وباربرا بيل. أحياناً كانتا تعملان في إطار مشروع تاريخ شفهي: استمعنا فقط، وتركنا النساء يتحدثن، والسلسلة محررة بعناية فائقة، تكاد تكون غير محررة. تسمعون ببساطة المرأة وهي تتكلم، بأسلوبها الخاص، عن حياتها، والنقاط التي تريد التركيز عليها، وهكذا. بعبارة أخرى، تعديل خفيف جداً.

الكتاب الأول هو "كذبة بيضاء"، وسأركز عليه بشكل رئيسي اليوم. لن أغوص فيه كثيراً الآن، لكن المرأة التي أجريت معها المقابلة — والتي تعتبر المؤلفة — هي مديحة حافظ البطة. الكتاب الثاني هو "أضيئي درب الحرية"، لسحباء البربري — التي يعني اسمها "الرفيقة". كان لها اسم آخر أيضاً، لكنها كانت تعرف بـ "الرفيقة" لأنها كانت شيوعية. قد أجد وقتاً لأقول بضع كلمات عنها كذلك. الكتاب الثالث هو "تعالوا يا أولادي"، لحكمت الطويل. الكتاب الرابع، "أستطيع أن أفعل أي شيء"، لم ينشر بعد، لذلك لم أقرأه. الثلاثة كتب الأخرى رائعة حقاً، وتشارك جميعها موضوعات مهمة أريد إبرازها من البداية.

المؤلفات نسويات — كل واحدة منهن بطريقتهن الخاصة. كل واحدة، من خلال سرد قصتها والمطالبة بسلطة "التاريخ الشفهي"، تتخطى ليس فقط الاستعمار ومناهضة الاستعمار، والحكم المصري، والحكم الإسرائيلي، بل أيضاً سيطرة الرجل. هذا خيط قوي يربط بين كل المجلدات الثلاثة.

لنمر عليها واحدة تلو الأخرى للحظة الأولى، كما قلت، مديحة حافظ البطة (1924-2011)، امرأة مسلمة. كما ذكرت سابقاً حول الوعي الطبقي، كل النساء الثلاث — بطرق مختلفة — لديهن وعي قوي بقضايا الطبقة الاجتماعية. اثنتان منهن جئن من عائلات ميسورة نسبياً — "من أناس ذوي مال"، كما قد يُقال — كما يظهر في هذه الصورة، أظن، من تعبير وجه مديحة، وتزوجن رجالاً ذوي مكانة. هذا أمر مهم في حالة مديحة.

الشيوعية، سحباء البربري (مؤلفة "أضيئي درب الحرية")، لا أعرف بالتحديد متى توفيت (1932-2012؟). الشيء المثير للاهتمام أنها كانت، من بين أشياء أخرى، زوجة مخلص — وهذا يبرز بقوة في الكتاب — للشاعر الفلسطيني المعروف معين بسيسو. الثالثة، "تعالوا يا أولادي"، لحكمت الطويل (1922-2008). لا أملك صورة لها، لكن لدي صورة لمنزل عائلة الطويل، الذي دُمّر في أكتوبر 2024. الكتاب غير المنشور "أستطيع أن أفعل أي شيء" لأم بسيم الكفارنة (1937-2009). لم أجد صورتها أيضاً، لكن وجدت صورة لبسام محمد الكفارنة، وهو في الخامسة من عمره، قُتل مؤخراً في غزة، ضمن مشروع تذكاري. كثير من أفراد قبيلة الكفارنة قُتلوا. أحدهم معروف لكم جيداً — لم أريد أن أظهر صورته. كان هيكلة عظمي، يُرى وهو مستلقٍ على السرير، لم يبقَ منه سوى العظم؛ وقد توفي الآن.

"كذبة بيضاء"، المجلد الأول في السلسلة، من تأليف مديحة حافظ البطة، يبدأ بسرد مولدها في خان يونس عام 1924. جاءت من عائلة مسلمة ملتزمة وبقية كذلك. تدور الكثير من قصتها حول محاولتها التنقل بين الوعي الطبقي، الوعي المناهض للاستعمار، والبحث عن مكان للمرأة ضمن هذا الإطار. تظهر كشخصية قوية جداً تصر على موقفها. عنوان الكتاب "كذبة بيضاء" لأن القصة تبدأ كما يلي: "كذبة بيضاء غيرت حياتي. بدونها، أنا متأكدة أن حياتي كانت ستكون مجرد مثال آخر على حياة معظم النساء الفلسطينيات في ذلك الوقت: أطفال، طبخ، تدبير المنزل. لكنني كنت أملك طموحاً لتجاوز ذلك." تشرح أنها أرادت الدراسة في رام

الله وتطوير تعليمها — وهو شيء نادر متاح للبنات في ذلك العصر. تبدأ القصة في عهد الانتداب البريطاني، عندما زار السيد فاريل، من قسم التعليم البريطاني، مدرستها وطلب من عدة طالبات إلقاء الشعر. تم اختيارها وأبدعت في الإلقاء، مما أثار إعجابه بشدة.

أقتبس من روايتها: "بعد أن انتهيت، ربت المفتش على كتفي وسأل عن اسمي. قلت: 'مديحة شيخ حافظ البطّة'. قال: 'آه، لهذا أنت ذكية هكذا — الابنة تشبه الأب.' ثم غادر المفتشون المدرسة. فور عودتي إلى المنزل، خطرت لي فكرة إقناع والدي بالسماح لي بالدراسة في كلية المعلمات للنساء في رام الله. سألت إذا ما كان المفتش البريطاني قد زار مدرسة الأولاد، حيث كان والدي مديراً. قال نعم، ثم زار مدرستكن. سألت إذا عاد إلى مدرسة الأولاد بعد ذلك. قال والدي لا. قلت له: 'أنا متأكدة أنهم عادوا، وعندما لم يجدواكم، سألوني إذا كنت أخطط للدراسة في كلية المعلمات في رام الله، لأنني جيدة جداً. لكن المعلمة تدخلت وقالت إنك كنت صارماً جداً ولن تسمح لي بالذهاب لأن الشريعة الإسلامية تمنع المرأة من السفر وحدها بدون مرافق ذكر.' ثم قال المفتش إنه سمع أن الشيخ حافظ البطّة متعلم جداً، وأنه في رام الله لا يوجد مدرسون رجال — حتى عامل النظافة ممنوع من دخول المبنى — فقط نساء مسلمات هناك. قال والدي: 'حقاً؟ هل هذا ما قاله؟' قلت: 'نعم! كذبت مرة أخرى، ووعد والدي بإعادة النظر. ثم أعطاني إذن الدراسة في رام الله.'"

أرى أن وقتي قد نفذ، لذا سأترككم مع هذا كمقدمة مشوقة. يمكننا مناقشة أي شيء ترغبون به، وربما أقرأ لكم بعض المقاطع الإضافية إذا رغبتكم.